الراحلون

من شعراء العصر

— ١ —

هل من ذاكرٍ اولئك الراحلين ، كانوا اعلام الشرق ، وملوك الكلام ، وأئمة الادب العربي ، خلّف بعضهم من الاثر المحمود : ما لا يفضلهُ ما بأيدينا اليوم من الآثار الحديثة ، وماند الدهر آخرين ، فلم يُبقِ لهم سوى : اقوال مبعثرة ، في صحف نُشرت وطويت ، واظنها قرئت ونسيت

عرفت من اولئك الرجال كثيرين ، وما زلت اذكر ما علمتهُ من اخبارهم ، وما لم أتعمد حفظهُ من اشعارهم ، وهم ثلاث فرق : « الفصحاء » وهم من جروا في شعرهم على سنة العرب ، وانصرفوا الى تخير الالفاظ ، ووضعها في مكانها ، فلا يستطيع غيرهم تبديلها بما هو خير منها ، وبذلك كانت اشعارهم لغوية ، قد يجد سواهم فيها ، ما لا يلذُّ لهُ استماعهُ . و« البلغاء » : وهم من قصدوا الى تصيّد المعاني ، في اودية الخيال ، ورغبوا عن حديث الرسوم والاطلال ، الى ما شهدوا من جديد اعقبهُ جديد . « والظرفاء » : وهم من قصروا اشعارهم على ما يروق اهل الظرف ، من غزل ، ومداعبة ، ومراسلة ، وحكاية ، في لفظ رقيق ، يفهمهُ خاصة الناس ، وعامتهم ، واكثر هؤلاء بعيدون عن المديح ، لا يشغلهم الا ما هم فيهِ من لذة العيش ، او نكد الحياة

***

اما من عرفت من « الفصحاء » ، فكانوا اربعة : السيد محمد توفيق البكري ، شفاه الله ، وهو الآن في حكم الراحلين ، يعيش منذ اعوام طوال في احد المستشفيات بالاقطار السورية ، والمرحوم يحيى السلاوي بك ، والمرحوم الشيخ احمد مفتاح ، والمرحوم محمود باشا سامي البارودي ، هؤلاء من انا ذاكرهم اليوم ، في رسالتي الاولى ، وسأذكر في الثانية البلغاء ، وفي الثالثة الظرفاء ، كل ذلك بما يجد ويروق من الاحياء إن شاء الله

السيد محمد توفيق البكري

عرفتهُ في سنة ١٩٠٢ عند الاستاذ العلامة الدكتور فارس نمر ، وكانت ادارة

المقطم في ذلك الحين ، بين شارعي الساحة وعبد العزيز ، كان متوقد الذكاء ، حاضر البديهة ، قوي الحجة ، حلو الفكاهة ، وكان مجلسهُ حافلاً برجال الادب والسياسة ، وكان لاشتغاله بالسياسة كثير الخصوم ، وقد حاربهُ اهل الدسائس بما حسبودٌ ذاهباً بكرامتهِ ، فلم يفلحوا ، وعفا عن اكثرهم

ومن آثارهِ : « فحول البلاغة » و « صهاريج اللؤلؤ » . واذكر من شعرهِ ابياتاً من قصيدة مدح بها المرحوم السلطان عبدالحميد الثاني من سلاطين آل عثمان ، والابيات :

اما وبمين الله ، حلفة مقسمٍ ... لقد قمت بالاسلام عن كل مسلمِ
فلولاك بعد الله ، امست ديارهُ ... بأيدي الاعادي مثل نهب مقسمِ
لقد سرَّ هذا النصر قبراً بطيبةٍ ... وبيتاً ثوى عند الحطيم وزمزمِ
فحيَّ امير المؤمنين وملكهُ ... ثناء البرايا من فصيح واعجمِ

ولم يسلم بعض شعرهِ من كلمات : تؤذي السمع ، وقد علق بخاطري بيت من ذلك الشعر ، هو قوله :

اصبح وادي الصَّرخَدِ ... عجلان كالسيف الصَّدى

وانا لا اعرف ما هو الصرخد ، ولم ابحث عنهُ في المعجمات ، لاني لا اريد ان اعرفهُ ، واقسم بالله : لو سمع اللفظة طفل ، لفزع وبكى ، حاسباً ان الصرخد شيء من امثال (الغول) و(البُعبُع)

ومن لطائفهِ : ان الكاتب المعروف ، المرحوم ابراهيم المويلحي بك ، زارهُ في ذات يوم ، فقال لهُ السيد توفيق : ان مولانا الخديوي سيسافر في هذه الايام ليفتح [illegible]

تحت رسمهِ ، قال : وما هو ؟ قال : (يفتح الخزان عباس) . فقال [illegible] الشعر ، وانت يا ابراهيم شاعراً ، وانا شاعر ، فانا احق بهِ منك ، أبيعهُ بعشرين جنيهاً ، قال ابراهيم : لا ابيعهُ الاَّ بمائة جنيه ، لا تسويف في دفعها ، فضحك البكري وقال : كيف صدقت اني رغبت في الشراء ، هذا الشطر لا يصلح لان يكون تاريخاً ، لانهُ مبنيٌّ بما سيكون ، فخير لهُ ان يضاف الى احد الحضور

ومن الجلي : ان البكري لم يُرد بتقدم الاَّ ان يمازح صديقهُ ، وهكذا كان لطيف المزاح ، كما كان شديداً متيناً في تقدمهِ الجدّي ، اذكر انهُ انتقد قصيدة لي ،

قرأتها في مجلسه ، فجعلها في نظري من احقر الكلام ، ثم ارضاني ، بان استنشدني غيرها ، واظهر اعجابهُ ، وللسيد البكري من الاحاديث والاخبار ، مالا يستطاع حصره في مثل هذا المقال

المرحوم يحيى السلاوي بك

هو ابو النصر يحيى السلاوي ، الشاعر العربي الفصيح ، صاحب « عكاظ الادب » ، هاجر من مصر الى فروق ، بعد الثورة العرابية ، وعرفتهُ في سنة ١٨٨٧ ، وكان عضواً في مجلس المعارف العلمي ، الذي كان معروفاً باسم (معارف أنجمن) ، وكان يجيد اللغة التركية ، تعلمها بعد هجرته ، الى ان عُدَّ من اوائل كتابها ، واذا كان في شعره العربي ، لا يفضل امثال البكري والبارودي واحمد مفتاح ، فهم كذلك لا يفضلونهُ ، أذكر لهُ في وصف الشجاع هذين البيتين من قصيدة لهُ ، قال رحمهُ الله :

بها كل مرهوب الكفاح غضنفر شديد القوى عَبْل أطاقرهُ حُمرُ
اذا مدَّ يوم الروع للسيف كفهُ تقاعس عنهُ الموت وانخذل الدهرُ

وكان في حديثهِ كمن يخطب ، لا يتكلم بغير العربية الفصحى ، وكان جريئاً في الحق ، وهذا ما اضرَّ بهِ في سني حياته بفروق ، عجا جواسيس السلطان عبد الحميد الثاني ، بهذه الابيات :

قد سعدتم سعادة الأبد يا وجوه الكلاب في البلد
ما عسى بعد ان يناز عكم في صحاف الالوان من أحد
إنما العيش للكلاب اذا ظلَّ عيش الاسود في نكد

فكاد السلطان يفتك به ، لولا شفاعة البعض من المقربين ، وما زال السلاوي يكافح الايام ، ويجهر بما لا يجوز الجهر بهِ في زمانهِ ومكانهِ ، الى ان نُفي وهو في بيروت ، وكانت مجموعة اشعاره ضخمة ، لفقدها لم تنشر ، ولا يدري احد لها خبراً

المرحوم الشيخ احمد مفتاح

العالم اللغوي ، والشاعر الناثر ، صاحب (مفتاح الافكار) و(رفع اللثام عن اسماء الاصنام) ، وهو استاذي ، واستاذ كثيرين ، من رجال الفضل في مصر ، كفضيلة الاستاذ عبد العزيز جاويش ، وفضيلة الاستاذ سطفن عناني ، احد صاحبي (الوسيط في الادب العربي وتاريخه)

كان كالبلبل ، يشدو الرياض ، فيصدح بما يطرب ويرقص من شعر اتصل روحهُ بمثل ما قال النابغة الذبياني :

طفلة ، شمسُ الخلخل ، بيضا ء ، لوب ، لذيذة في العناق
ضربت صدرها اليَّ ، وقالت : يا عديًّا ، لقد وقتكَ الاواقي

وهذا الشعر ، عدا لفظه الخالي ، وسحر القالب ، لا يكتب منثوراً ، الاَّ كما جاء منظوماً ، وهكذا جاءت آيات احمد مفتاح

كان يزورني واخي المرحوم ولي الدين يكن ، في منزلنا (بميل الروضة) فنجلس الى شاطئ النيل ، بين ماء وزرع ، نتطارح ونتساجل ، ومما اسمعنا من شعره ، قصيدة هنأ بها صديقاً لهُ ، انعم عليه برتبة ، اذكر منها مطلعها وبيتاً في التهنئة أما المطلع فهو :

طرق الخيال : مُعرّسين عُجالا والليل ، شمّر للسرى اذيالا

واما بيت التهنئة ، فقولهُ :

هي رتبة ، ستكون سلّم غيرها وكذاك بدر التم ، كان هلالا

ومما اذكرهُ لهُ :

قرعت نبع الليالي ، وهي جامحة يرجى لي الويلَ ، منها البؤس والحربُ
والحُرُّ يزداد بالايام تجربة كما يصفّى بنار الصائغ الذهبُ

وكان على خصاصته مبسوط اليد ، ذا عفة واباء ، زارهُ في ذات يوم رجل بائس ، طلب اليه ان ينظم لهُ أبياتاً يمدح بها احد الامراء ، فأمل عليه عشرة ابيات ، أخذها الرجل وانصرف ، ثم عاد اليه بعد يومين ، ودلائل السرور بادية عليه ، فهنّى الاستاذ وقال لهُ : [illegible] ولك النصف الآخر ، وهو يعني [illegible] فغضب الاستاذ وقال : اني اتقاضى من الحكومة عشرين ، وليس لك من عائدة ، ترانني عائل ، يا رجل ، وحيد في هذه الدار ، فلا تظلم نفسك ، خذ ما وهبك الامير ، واذا يقدّم لك ، فاني معينك على قدر المستطاع

ومات الاستاذ في داره ، وما درى جيرانهُ بموته الاَّ بعد ثلاثة أيام ، هكذا يموت الشاعر في الشرق ، ولا يعلم بموته احد ، ولم يطبع الاستاذ ديوانه ، فليس لهُ سوى ما نشر في الصحف ، وهو قصائد معدودة من العصب جمعها

المرحوم محمود باشا سامي البارودي

رب السيف والقلم ، الشاعر الساحر ، بقوة بيانه ، المعروف ، بالفاظه المختارة ، وقوافيه المتينة ، واسلوبه العربي ، كل ذلك في سهولة وانسجام ، لا نظير لها وهو القائل:

ردّي التحية ، يا مهاة الاجرعِ ، وصلي بحبلك ، حبل من لم يقطعِ
وترفقي بمتيم ، علقتْ به نار الصبابة ، فهو داعي الأضلعِ

والقصيدة مطوّلة . والقائل :

ما اطول الليل على الساهرِ أما لهذا الليل من آخرِ

ومن هذه القصيدة قوله :

أسمع في قلبي : دبيب المنى ، وألمح الشبهة : في خاطري

لهُ ديوان قيم مطبوع ، ولهُ (مختارات البارودي) ، واظنها طُبعت قبل ديوانه ، عرفتهُ بعد عودتهِ من منفاهُ ، وكنت ازورهُ كلما استطعت ، لاقتبس من فضله ، ولكونهِ صهر أسرتنا ، وكان زواره كثيرين ، والكل مستفيد بعلمهِ

جاءهُ في ذات يوم : الشاعر المجيد احمد شوقي بك ، فاسمعهُ قصيدة غامرة الابيات ، فاظهر البارودي اعجابهُ بها ، ولما جاء شوقي الى قوله :

عنّت بنا أصلا ، تفري بنا اسلاً مهزوزة دلّلاً ، مشروعة تيها

قال البارودي : لماذا قلت (دللاً) يا شوقي ، قال لم أجد سواها ، قال ضع مكانها (شكلاً) ، فالمعنى واحد ، ولكن شتان ما بين اللفظين ، فامتثل شوقي شاكراً ، وكان البيت :

عنّت بنا اصلاً تفري بنا اسلاً مهزوزة شكلاً ، مشروعة تيها

وللبارودي تاريخ عظيم ، غير مجهول ، يعلمهُ من قرأوا ديوانه ، ومن عاشروه ، أما اخبارهُ الادبية ، فلا يستطاع حصرها

هذا ما يسر لي ذكرهُ بالايجاز ، من اخبار من عرفتهم ، من فصحاء الشعراء الراحلين ، والفصل التالي في اخبار البلغاء

حلوان يوسف حمدي يكن